المحاضرة الثالثة

الاتجاه الاحيائي في النقد (المرصفي أنموذجا)

من صور النقد العربي في مطلع القرن التاسع عشر تلك المناقشات اللفظية التي كانت تجري في دروس الأزهر ومعاهده، أي كان النحو هو الذي تُقاس عليه النصوص الأدبية، فلما جاء عهد إسماعيل اشتدت العناية بالأدب العربي ، وقد عُنيت بالفكرة والأسلوب السهل والقصد في الألفاظ، كما أنها بعدت عن التكلف والصنعة البديعية والمبالغة والمقدمات الطويلة والخيال السخيف، ووجد في أواخر عهد إسماعيل وفي عهد توفيق من يحاول من الكتاب رسم طريقة جديدة في الأسلوب ومنهم أديب إسحاق وعبد الله النديم، ولأن النقد يتبع الأدب، فقد ظهر نقاد نهلوا من التراث العربي القديم وبعض الآداب الأجنبية لتوجيه الأدباء الجدد وتقويمهم وفق رؤية تميل إلى التراث النقدي.

ولعل الشيخ حسين المرصفي بكتابه الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية خير من يمثل لنا النقد في أواخر القرن التاسع عشر، وكتابه عبارة عن المحاضرات التي كان يُلقيها بدار العلوم منذ أول إنشائها إلى أن ترك التدريس بها سنة 1888 وكان كثيرا من هذا الكتاب ينشر في مجلة روضة المدارس التي أنشأها علي مبارك.

ويمكن أن نجمل أهم الآراء النقدية للشيخ في ما يأتي:

عرف حسين المرصفي الشعر وصناعته تعريفا موافقا لتعريف ابن خلدون؛ حين رأى أن لكل لغة أحكامها الخاصة في البلاغة، وأنه ربما استفادت في ذلك لغة من لغة،وأنه يجب في الشعر العربي التزام الشاعر لمذهب القصيدة القديمة (البحور، الوزن، القافية، قيام على وحدة البيت)،أما في تعدد الأغراض فقد قال أنه يمكن أن يحتاج البيت لآخر ولا يكون هذا عيبا.

وافق حسين المرصفي ابن خلدون في تعريفه للشعر بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي... الجاري على أساليب العرب

المخصوصة به، بيد أنه خالفه في قضية الأساليب الشعرية ورأى أن شعراء العرب لم يتفقوا على سلوك مذهب بعينه في الشعر.

ناقش المرصفي راي ابن خلدون في الذوق (الذوق هو حصول مكلة البلاغة للسان) فلم يوافقه عليه بل عرفه بقوله: " الإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء، ويوجب الاستحسان والاستقباح هو المسمى الذوق، وهو طبيعي ينمو ويتربى بالنظر في الأشياء والأعمال من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها" (يلاحظ هنا تقدم للنقد ببضع خطوات).

عقد المرصفي موازنات بين البارودي وفحول الشعراء الأقدمين الذي عارضهم البارودي كأبي نواس والشريف الرضي وتميزت موازناته بـ:

1. توجيه بعض النقد من غير تعليل، واعتماده على النقد الذاتي المحض .
2. مثله الأعلى في الشعر هو القصيدة العربية القديمة، فهو لا يريد الخروج على ما هو مالوف في سنة الشعراء.
3. ينقد نقدا لغويا، فيناقش معاني بعض الكلمات ويبين الخطأ في استعمالها.
4. يرى في السرقة أن يؤاخذ الشاعر على أخذ المعنى لا سيما إذا كان السابق أصح معنى، أما المعنى غير الغريب فيسامح فيه.
5. لا يستحسن البيت الذي يكثر لفظه ويقل معناه، كما لا يستحسن تكرار المعنى الواحد في قصائد مختلفة لشاعر واحد.
6. يرى أن شعر الشاعر لا يكون دوما بمنزلة واحدة، فقد يجود وقد يسيء فلا ينبغي الاغترار بشهرة المشهور، إنما ينبغي الاحتكام للقوانين والقواعد.

نقد المرصفي إذن ذاتي موضوعي معاً، ولكن مقياسه العام صحة المعنى وتخير اللفظ وخلوه من التنافر والغرابة ومناسبته لموضوعه.